تعريف بالكتاب

أكتب هذه الكلمات وبين يدى تعليق بعض الصحف الأدبية على ترجمة جديدة لهذا الكتاب الخالد ، ربما كانت هى الترجمة السادسة أو السابعة لهذا النشيد الى اللغة الانجليزية ، وكل من هذه الترجمات كانت له مزاياه التى رغبت فيه قراءه حين صدوره لمناسبة من مناسبات زمانها ؛ فمنها ما ترجم ابان العناية باللغة السنسكريتية وآدابها ، ومنها ما ترجم للنظر فى العقائد البرهمية والرجوع الى أسانيدها المأثورة عند أبنائها الأولين ، ومنها ما ترجم للتوسع فى المعرفة والتعليق على المعلومات اللغوية والتاريخية والفكرية بجميع جوانبها ، ومنها ما ترجمه الهنديون وما ترجمه الأوربيون وما تعاون عليه هؤلاء وهؤلاء ... ولكنها لم تسلم من عيوبها الى جانب مزاياها ، ولم تغن عن هذه المحاولة الجديدة لاستدراك ما أمكن استدراكه من تلك العيوب ، على النحو الذى يناسب موضوعها .

فقد لوحظ على بعض تلك الترجمات أنه كان يتقيد بحرف الكلمة فى اللغة السنسكريتية ويذهب برونق المعنى حرصا على الأمانة الحرفية . ولوحظ على غيرها أنها كانت تقدم جانب التاريخ والأجرومية على جانب الأدب والطلاوة الفنية ، ولوحظ على أكثرها أنها كانت تترجم للدراسة ولا تترجم للتأمل أو « للتعبد الفكرى » ليقرأها القارىء الغربى كما يقرؤها الهندى الأصيل ، وان لم يكن معتقدا لشعائر الديانة البرهمية .

وبقى للترجمة الواجبة متسع لهذه المحاولة التى قال المعقبون عليها انها نظرت الى ترتيل النشيد كما يرتل فى ساعات التأمل والعكوف على

محراب الرياضة الروحية ، وربما سمح مترجمه لقلمه بتجاوز الحرف « الأجرومى » فى سبيل معنى البلاغة أو معنى المناجاة العاطفية ، فان هذا النشيد خاصة يتلوه القارىء بفكره ووجدانه وذوقه وايمانه كما تتلى كتب الذكر والتهجد ، ولا يقرؤه الهندى المتدين كأنه يقرأ درسا من دروس الفقه أو قضية من قضايا الحكمة والفلسفة الروحية .

ولقد كان رواجه فى الغرب مستمدا من رواجه بين أبناء قومه من العلية والسواد ومن الدارسين وغير المتعلمين وجمهرة المستمعين الى كتب الدين ، ومنهم أشباه الأميين .

وهذا الغـــرام بهذا الكتاب ، أو هـــذا النشيد ، من بين كتب « المهابراتا » التى تزيد سطورها المنظومة على مائتى ألف شطر ، انما يرجع الى شعور القارىء له بأنه يقرأ كتابا مقدسا يملك فيه حريته الفكرية وحريته الوجدانية ، لأنه من كتب الدين ولكنه لا يعد فى رأى الأكثرين « كلمة الهية » بجميع تفصيلاته وأحكامه ، بل تتصل فيه قداسة الانسان المفكر المجتهد بوحى الاله الذى لا يقبل التبـــديل والمراجعة ... وتنقسم كتب الدين عند الهنديين من هذه الوجهة الى قسمين : أحدهما كتب السروتى Sruti ، وهو وحى الهى خالص لا تمتزج به آراء البشر وظنونهم التى يباح لهم أن يجتهـــدوا فيها اجتهادهم للنفاذ الى أسرار برهما الخفية ، والقسم الآخر هو كتب (الاسمريتى) Smriti ؛ وهى المرتبة التالية لتلك المرتبة فى القداسة وتنزيه العبادة . وأكثر هذه الكتب ملاحم قصصية يجوز أن تحسب من التاريخ كما تحسب من العبادة والتسبيح .

ولا ينحصر بحث الكتاب فى صورة واحدة من صور الربوبية عند الهنديين . فان فيه كلاما عن الاله « برهما » فى صورته المطلقة التى تتنزه عن التشخيص ، ولا يقال عنها انها « ذات » ، بل لا يقال عنها انها موجودة ، لأنها هى الوجود ، وهى المصـــدر الأول والأخـــير لجميع الموجودات ... ومن أراد أن يعرفها فلينظر الى الموجودات مظهـــرا

مظهرا ، وخلقة خلقة ، وليقل ان برهما ليس هذا وليس ذاك ، وليس غير هذا ولا ذاك مما تحتويه الأكوان وراء الحس والعيان . فاذا عرض جميع المظاهر والخلائق ونفى عنها أن تكون هى « برهما » فى أفرادها أو مجاميعها ، فهناك « برهما » الخفى الأبدى الكامل المطلق بكماله الذى لا « شخص » له ، وليس له « كيان شخصى » تدركه الأفكار .

وفى الكتاب ـ أيضا ـ كلام أوسع من ذلك عن برهما الذى يتجلى فى عمله ويسفر لخلقه فى حكمته ومشيئته ويصح أن يوصف «بالذاتية» كما يوصف الاله « الذات » فى غير البرهمية من الديانات .

وتتحدث الباجفاد جيتا عن الخلاص الالهى بالمعرفة كما تتحدث عن الخلاص الالهى بالنسك والرياضة،ويزيد عليهما الخلاص الالهى «بالنعمة» أو البركة الملهمة ـ وهى المنزلة التى يرتفع اليها العارفون ممن استحقوا عناية الاله ـ توجيها لهم الى الحق بنعمته ، حيث تنتهى أشواط المعرفة والنسك ويتساوى جهل الحكماء وجهل النساك .

وفى الكتاب مخرج من الحيرة للعاملين الذين يتخذون حياة العمل ويصطدمون فى دنياهم « العملية » بشرور العداوة وضرورات الحروب التى تسفك فيها الدماء ، أو ضرورات الخصومة التى تثير النفس الى المقاومة ومقابلة العنف بالعنف والجفاء بالجفاء . فان فتوى « كرشنا » لتلميذه الحائر تلهمه أن يفرق بين تحريم ازهاق الحياة وبين مقاتلة النفوس التى تتقلب فى الحياة الواحدة بين جسم الانسان فى طفولته وجسمه فى صباه وجسمه بعد ذلك فى هرمه وبعد موته ، ثم تتقلب بين أجسام أخرى من الأحياء الآدميين . فان حكم هذه النفس المتقلبة بين عوارض الأجساد يخالف حكم الروح الحى الذى يعتبر العدوان عليه عدوانا على جوهر الحياة ، ولا ينظر فيه الى أفراد الناس وأفراد الأحياء، وانما ينظر فيه الى « الروح الالهى » الذى بث فيهم حياته وحرم المساس بها على عباده ، وكل ما يجب على البرهمى الصادق اذا اتخذ حياة العمل وعرضت له مشكلة الحرب ـ أن يحارب ويقاوم ويعرض

نفسه ونفوس أعدائه لما يصيبه ويصيبهم ، وهو منزه عن الغرض مبرأ من شهوات الطمع والأثرة . فاذا أملى عليه الواجب أن يقاتل فهو فى خدمة الحق الالهى وليس فى خدمة هواه أو خدمة جسده الذى يشوه له مقاصد الاله .

وقد كان غاندى يبكت نفسه لأنه غفل عن هذا الكتاب فى صباه ولم يطلع عليه حتى تخرج من مدارس التعليم الثانوى الى المدارس العالية . ولكنه افتتن به بعد الاطلاع عليه ونظر اليه نظرته الى ذخيرة من ذخائر الثقافة الانسانية فضلا عما يكنه له الهندى من رعاية التقديس والعبادة، وكتب فى صحيفته الأسبوعية « الهند الفتاة » فى سادس أغسطس سنة ١٩٢٥ يقول : اننى لأرجع الى البهاجفاد فأهتدى الى سطر من سطوره يبعث العزاء الى نفسى ولا ألبث أن أبتسم راضيا بين ما يحدق بى من أحزان مطبقة .

وقال كاتبه الأمين « ماهاديف ديزاى » الذى تولى الكتابة له عدة سنوات : « ان كل لحظة من حياة غاندى انما كانت محاولة مقصودة ليعيش محققا فى معيشته رسالة البهاجفاد ، وانه كان يقول عنها انها مستشاره الروحانى الذى يراجعه كلما أحس الحاجة الى المشـــــورة .

ويتسم هذا النشيد أو هذا المستشار الروحانى كما سماه المهاتما ـ بسمة التفكير الهندى التى تميزه من تفكير العقل الغربى فى هذا الزمن كما ميزته فى الأزمنة الغابرة . فقد أصاب بريزون حين قال فى حواره وهو يسأل زميليه : « أليس مما يميز المفكرين الهندوس القدامى أن يكون هذا هو وقت التفكير فى مسألة الحرب والسلم ؟ ... اننى أعتقد أنه مما يميز العقلية الغربية أن الحرب أمر قد نشك فى قيمته فى كل لحظة باستثناء اللحظة التى تسبق نشوب الحرب مباشرة . ففى هذه اللحظة لا يكون لدينا شك فى أن الحرب واجبة » .

ويعنى الأستاذ بريزون باللحظة التى اختـــارها الأمـــير ارجونا للسؤال عن صواب الاقدام على القتال واهدار الدماء . أنها هى اللحظة

التى اصطف فيها الجيشان ونادى نفير الحرب من المعسكرين بالزحف والهجـــوم .

وقد كان رد الأستاذ سزامك عليه بعض الجواب ، لأن سبب الحيرة من جانب ارجونا « أن الجيتا تسأل سؤالا رفيعا محيرا وتجيب عنه على نحو ما . فما هو الحق وما هو الباطل ؟ هل الحياة حقيقة والموت حلم أو الموت حق والحياة هى الحلم ؟ » .

ولكن التمايز بين العقلية الهندوسية والعقلية الغربية لا يزال محلا للسؤال بعد هذا الجواب ، فان العقل الغربى قد يحار أيضا فى حقيقة الحياة والموت وأيهما هو السر الباقى وأيهما هو المظهر الزائل ، ولكنه لا يلتمس المخرج من هذه الحيرة فى اللحظة التى يسمع فيها نفير النداء الى المعركة ، ولا يفهم أن الاله يهبط عليه بالحكم الفاصل فى تلك اللحظة ، فاذا اختلف التفكيران فقد يكون الاختلاف بينهما لاختلاف العقول كما يكون لسبب آخر يطرأ على العقل الغربى كما يطرأ على العقل الهندوسى اذا تشابهت « ظروف » التفكير كما يقال .

وهنا محل لسؤال لا نحسب أننا بحاجة الى انتظار جوابه ، لأنه أقرب الى اتفاق الرأى فى جوابه بين مناهج التفكير .

فهل نستغرب من القائد الغربى أن يحار كما حار أرجونا اذا وصل الى ساحة المعركة وهو يحرم ذبح الحيوان ، ويرى أنه مقدم فى تلك اللحظة على ذبح ألوف من بنى الانسان ، لعلهم من الاخوة والأخوات ؟

لا نخال أننا نستغرب من القائد الغربى أن يحار فى تلك اللحظة مثل تلك الحيرة ، ولا نخال أن غرابة الموقف عند الهندوس كانت تقل عن غرابته عند المفكرين الغربيين ، لأنهم جعلوا المشكلة فيه مشكلة لا تفضها مشورة العقول البشرية ولا غنى لها عن « اله » يأخذ بمقاد الأمير وهو فى ثياب دليل يقبض على زمامه الى القتال ويثنيه عن الفرار .

عباس محمود العقاد